

شرح كتاب الفتن من صحيح البخاري الجزء الأول

كتاب الفتن من صحيح البخاري

قال الإمام البخاري - رحمه الله - :

7048 - حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا بشر بن السري، حدثنا نافع بن عمر، عن ابن أبي مليكة، قال: قالت أسماء: عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: " أنا على حوضي أنتظر من يرد علي، فيؤخذ بناس من دوني، فأقول: أمتي، فيقال: لا تدري، مشوا على القهقرى " قال ابن أبي مليكة: »اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا، أو نفتن«

7049 - حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عوانة، عن مغيرة، عن أبي وائل، قال: قال عبد الله: قال النبي صلى الله عليه وسلم: " أنا فرطكم على الحوض، ليرفعن إلي رجال منكم، حتى إذا أهويت لأناولهم اختلجوا دوني، فأقول: أي رب أصحابي، يقول: لا تدرى ما أحدثوا بعدك "

7050 - حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن، عن أبي حازم، قال: سمعت سهل بن سعد، يقول: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم، يقول: »أنا فرطكم على الحوض، فمن ورده شرب منه، ومن شرب منه لم يظمأ بعده أبدا، ليرد علي أقوام أعرفهم ويعرفوني، ثم يحال بيني وبينهم« قال أبو حازم: فسمعني النعمان بن أبي عياش، - وأنا أحدثهم هذا، فقال: هكذا سمعت سهلا، فقلت: نعم، قال: وأنا - أشهد على أبي سعيد الخدري، لسمعته يزيد فيه قال: " إنهم مني، فيقال: إنك لا تدري ما بدلوا بعدك، فأقول: سحقا سحقا لمن بدل بعدي "

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه

فمن نعمة الله سبحانه وتعالى ومن رأفته ورحمته بنا وبأمة محمد □ أن أوحى إلى نبيه □ بتحذير هذه الأمة مما ستقع فيه من فتن وبلايا تمر هذه الفتن على قلوب العباد فتزلزلها وتؤثر فيها سلباً ، حتى إن بعضهم يصبح مؤمناً ويمسي كافراً ويمسي مؤمنا ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا .

فبيَّن لنا □ هذه الفتن وبين طريق الخلاص منها والحذر ، وبين لنا أيضاً أسباب وقوعها لنحذرها .

فلم يترك النبي [] شيئاً إلا وضحه لهذه الأمة وبينه قبل موته عليه الصلاة والسلام ؛ حتى قال أبو ذر رضي الله عنه : لقد مات النبي [] وما من طائر يقلّب جناحيه في السماء إلا وذكر لنا منه علماً .

وقال سلمان الفارسي : لقد علمنا رسول الله 🛘 كل شيء حتى الخراءة .

وقال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه : والله إني لأعلمُ الناسِ بكل فتنة هي كائنة فيما بيني وبين الساعة .

ثم ذكر أن النبي □ لم يسرّ له بذلك سرّاً ؛ وإنما ذكره لأصحابه وعلمهم ، ولكن الناس حفظ منهم من حفظ ونسيً منهم من نسي ومات منهم من مات ، فكان رضي الله عنه أعلم زمانه بالفتن التي أخبر النبي □ عنها .

ولعظم خطر هذه الفتن ولشرها ولكثرتها في هذا الزمان ؛ انتقينا شرح هذه المسألة من صحيح البخاري ، فمعلوم ما لصحيح البخاري من مكانة من ناحية الصحة ومعلوم ما في تبويبات الإمام البخاري - رحمه الله - من فقه وعلم في هذه المسائل وغيرها حتى قال أهل العلم : إن فقه الإمام البخاري في تبويباته .

فبدأ المؤلف رحمه الله بقوله (كتاب الفتن)

الفتن ؛ جمع فتنة ، وهي في اللغة : الابتلاء والامتحان والاختبار ، وأصلها مأخوذ من قولك : فَتَنْتَ الفضة والذهب ؛ إذا أذبتهما بالِنار لتمييز الرديء ِ من الجيد .

وأما في الشرع ؛ فأطلقت على عدة معان ؛ منها :

المحنة وهي الاختبار ، والمال ، والأولاد ، والكفر والشرك ، والإحراق بالنار ، وغير ذلك من المعاني الكثيرة التي ذكرها أهل العلم والتي وردت في الكتاب والسنة .

والمقصود بها هنا هي المصائب والبلايا والعقوبات التي تنزل بالعباد .

ولا نتحدث هنا في الفتن الخاصة ؛ وهي فتنة الرجل في ماله وأهله وولده ؛ فهذه فتن خاصة تكفرها الصلاة والصيام والزكاة ، كما جاء في حديث حذيفة ؛ ولكن الحديث هنا عن الفتن العظيمة الكبيرة ، التي وصفت بأنها تموج كموج البحر من عظمها وكثرتها وكثرة تخبط من تناله ، فيكثر فيها الشر بأنواعه من منازعة ومخاصمة ومقاتلة وسفك للدماء .

قال المؤلف - رحمه الله : - (باب ما جاء في قول الله تعالى { واتقوا فتنة لأتُصيبَنِّ الذين ظلموا منكم خاصة } وما كان النبي [يُحَدِّر من الفتن)

هذا الباب معقود لبيان ما ورد في القرآن والسنة من التحذير من الفتنة ، ووجوب اجتناب أسبابها والوقوع فيها . والحديث عن الفتنة العامة التي تعمّ ولا تخصّ بعض الأفراد ؛ كما ذكرنا ، وكما ذكر في الآية : { واتقوا فتنة لا تُصيبَنّ الذين ظلموا

منكم خاصة }فهي فتن عامة . وأما الآية التي سبقت هذه فهي قوله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه وانه اليه تحشرون { 24 } واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا ان الله شديد العقاب {

```
25 [ الأنفال : 25 26 – ] .
```

(يا أيها الذين آمنوا) خطاب لجميع المؤمنين ؛ فهو لفظ عام شامل .

(استجيبوا لله وللرسول) أي أطيعوا أمر الله وأمر رسوله 🛮 .

(إذا دعاكم لما يحييكم) أي إذا أمركم بالإيمان الذي يحي القلوب ، وللإسلام والالتزام بأوامره وأوامر رسوله □ ، الذي دعانا إلى التوحيد والسنة والطاعة ، ونهانا عن الشرك والبدع والمعاصي ، وفي ذلك حياة القلوب وسلامة الأبدان ، فالإيمان نور للقلب من ظلمته ، وحياة له من موته .

وقد جرب كثير منا الحال قبل الإيمان وبعده ، أو قبل كماله ونقصانه ؛ فيجد الفرق في قلبه ، ويشعر بحياته .

(واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) أي يمنع المرء من الإيمان والكفر إلا بإذنه ،.

فالله عز وجل هو الذي يأذن بذلك ؛ فلا يكون شيء في هذا الكون إلا بإذنه تبارك وتعالى .

ويحول ؛ بمعنى يحجز بين الشخص وبين قلبه ، فالإيمان والكفر من عمل القلوب ، ولذلك نكثر من دعاء الله ؛ يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك .

ونستجيب لله وللرسول بالطاعة ؛ فهذا من أسباب الثبات على الحق .

(وأنه إليه تحشرون) يوم القيامة ؛ فيجازيكم بأعمالكم ، فمن عمل خيرا جزي به ومن عمل شراً جزي به ؛ فبادروا لطاعته . (واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) أي ؛ احذروا واجتنبوا فتنة عامة تصيبكم جميعاً ، لا تختص بالفسقة والمخالفين للشرع والظلمة لأنفسهم ولغيرهم والخارجين عن الطاعة فحسب ؛ بل تعمُّ الصالح والطالح .

كما جاء في حديث ابن عمر في » صحيح مسلم « قال : قال رسول الله □ » : إذا أراد الله بقوم عذاباً نزل العذاب ...

فالعذاب يعمّ والرحمة ِ تخص كما قال أهل العلم بناء على ما استقرؤه من النصوص.

ولوقوع الفتنة العامة أسباب ، يمكن تلخيصها في سببين :

٠ الأول : انتشار الفساد وكثرته بين الناس .

· والثاني : ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

والثاني سبب لانتشار الأول ؛ فإذا ظهر الفساد بين الناس وظهرت المعاصي وظهر الفجور ، ثم ترك ذلك ولم ينكر ؛ عمّ وطمّ في البلاد .

ودليل الأول ؛ وهو انتشار الفساد ، على أنه سبب في وقوع الفتن ؛ الآية المذكورة نفسها ؛ فسبب وقوع الفتنة ظلم الناس بارتكابهم للبدع والمعاصي والذنوب.

وفي حديث زينب بنت جحش في » الصحيحين : « » أن النبي □ استيقظ من نومه وهو يقول » : لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من رَدْم يأجوج ومأجوج مثل هذه - «وأشار النبي صلى الله عليه وسلم بيده - فقالت زينب : يا رسول الله ! أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال » : نعم ؛ إذا كثُرَ الخبَثُ « .

والخَبَثُ ؛ هو المعاصي والذنوب والبدع والمنكرات .

إذا كثر الخبث يهلك الله تبارك وتعالى الجميع الصالح والطالح إلا من رحم .

وقال 🛘 » : إذا ظهر السوء في الأرض ، أنزل الله بأهل الأرض بأسه « ، قالت عائشة : وفيهم أهل طاعة الله ؟ قال » : نعم ؛ ثم يصيرون إلى رحمة الله . « أخرجه أحمد في » مسنده « .

فهذا يدل على أن كثرة الفساد سبب لوقوع الفتنة ، فاجتنابها يكون باجتناب انتشار المعاصي والبدع .

وأما الدليل على أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب لوقوع الفتن ؛ فقوله □ » :والذي نفسي بيده ، لتأمُرُنّ بالمعروف وَلَتَنْهَوُنّ عن المنكر ، أو ليوشكنّ الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ، ثم لتدعنّه فلا يستجاب لكم . « أخرجه أحمد والترمذي .

ثم قال الله عز وجل في آخر الآية (واعلموا أن الله شديد العقاب) ، فإذا نزلت الفتنة ؛ فإنها تنزل شديدة – نسأل الله السلامة والعافية – وعمّت الجميع.

والشاهد من ذكر الإمام البخاري للآية قوله تعالى { فاتقوا فتنة } يعني احذروا من وقوع فتنة عامة تصيب الصالح والطالح ، ففي هذا تحذير من الفتنة ويحذر المرء منها بمعرفة أسبابها واجتنابها .

وسيذكر المؤلف أسباب الفتنة ؛ وكلها ترجع إلى ما ذكرنا .

ثم بدأ المؤلف بذكر أحاديث فيها أسباب الفتن التي تؤدي إليها ؛ فقال :

حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا بشر بن السري، حدثنا نافع بن عمر، عن ابن أبي مليكة، قال: قالت أسماء: عن النبي □ ، قال: » أنا على حوضي أنتظر من يرد علي، فيؤخذ بناس من دوني، فأقول: أمتي، فيقال: لا تدري، مشوا على القهقرى « قال ابن أبي مليكة: » اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا، أو نفتن« .

(أسماء) هي أسماء بنت أبي بكر الصديق أخت عائشة من أبيها رضي الله عنهم .

قال النبي □ : (أنا على حوضي أنتظر) حوض النبي □ مكانه في عرصات القيامة ، في الساحات الواسعة التي يحشر الناس فيها ، يشرب منه الناس في الموقف .

والحوض ؛ مكان منخفض تجتمع فيه المياه ، وهو خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم .

وُقد جَاءَ وصف حوض النبي [] في السنة ؛ فقال ً [] » : حوضي مسيرة شهر ، ماؤه أبيض من اللبن ، وريحه أطيب من المسك ، وكيزانه – وهي أوانيه التي يُشرب بها – كنجوم السماء ، من شرب منه فلا يظمأ أبداً « متفق عليه . وأحاديثه متواترة والإيمان به من عقيدة أهل السنة والجماعة .

```
يأتيه المسلمون ومن معهم من المنافقين - الذين كانوا يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر في الدنيا - للشرب منه والنبي ] عنده .
قال ] : ( فيؤخذ بناس من دوني ) أي يمنع بعض الناس من الشرب من الحوض .
قال : ( فأقول أمتي ) أي إنهم من أمتي ، وأمته لا يمنعون من الشرب منه .
فيقال له : ( لا تدري ؛ مشوا على القهقرى ) أي إنك لا تدري ما أحدثوه من بعدك ، إنهم رجعوا إلى الخلف من بعدك ولم يسيروا على الطريق إلى الأمام ، فغيروا وبدّلوا وأحدثوا في دين الله ما ليس منه .
على الطريق إلى الأمام ، فغيروا وبدّلوا وأحدثوا في دين الله ما ليس منه .
والقهقرى ؛ هو الرجوع إلى الخلف ، وهي كناية عن التغيير والتبديل في دين الله .
فهؤلاء وقعوا في الفتنة بعد النبي ] بسبب الإحداث والتغيير في الدين .
( قال ابن أبي مليكة ) هو عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة ؛ تابعي ، قال : أدركت ثلاثين من الصحابة .
( اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا أو نفتن ) تعوّذ من الرجوع على العقب ، أي إلى الخلف ، وهو كناية عن مخالفة الأمر والوقوع في البدع والمحدثات الذي تكون الفتنة بسببه ، واستعاذ من الوقوع في الفتن بشكل عام .
وفي الرواية التي بعدها قال :
وفي الرواية التي بعدها قال :
( أنا فَرَطُكُم على الحوض ) أي أنا الذي يتقدمكم على الحوض ، فيكون أول من يحضره .
```

وأن المذكورين الذين لا يُسْقَون من أمة محمد □ ؛ لأنه قال » رجال منكم « وهذا في الظاهر ، ولكنهم في الحقيقة قد غيّروا وبدّلوا .

> فهل هذا التغيير تغيير في الأصول تغيير كلي حتى إنهم كفروا به ، أما تغيير جزئي في البدع والمعاصي ؟ فيهم قولان :

- -1 قول بأنهم المنافقون ؛ وهؤلاء كفار وإن كانوا في الظاهر من أمة محمد [] .
- -2 وقول بأنهم مؤمنون إلا أنهم أحدثوا في دين الله ما ليس منه فاستحقوا الطرد والإبعاد.
 - ولا يبعد أن يكون الجميع مرادا بهذا الحديث .
 - ومعنى » أهويت « أي مددت يدي لأناولهم .
 - و » اختلجوا دوني « أي اجتُذبوا واقتطعوا فلم أصل إليهم .

وقال (لا تدري ما أحدثوا بعدك) هذه تفسر الرواية التي قبلها ، فالروايات تفسر بعضها بعضا ، والإحداث ؛ التغيير في دين الله إما بالمعاصي أو بالبدع أو بالنفاق اللفظ يحتمل هذا كله .

وفي الرواية التي بعدها قال (لَيَردَنَّ عليَّ الحوضَ أقوامٌ أعرفهم ويعرفوني) فيعرف النبي [أمته بآثار الوضوء كما جاء في حديث آخر ، وهم يعرفونه بصفاته .

وقال (إنهم مني ؛ فيقال : إنك لا تدري ما بدّلوا بعدك ، فأقول : سحقاً سحقاً لمن بدّل بعدي) أي بُعْداً بعدا ، فيدعو عليه بالبعد ؛ لأحداثه في الدين.

والشاهد من هذه الآثار :

أنها تتضمن ؛ الوعيد على التبديل والإحداث ؛ فإن الفتن غالباً تنشأ عن ذلك عن التغيير بالمعاصي والبدع وغيرها من أنوع الخروج عن طاعة الله ، فهي سبب من أسباب الفتن ؛ فيجب اتقاءها والحذر منها .

قال المؤلف − رحمه الله : - (باب قول النبي] » : سترون بعدي أموراً تنكرونها « .

وقال عبد الله بن زيد » : قال النبي 🛘 » : اصبروا حتى تلقوني على الحوض «).

هذا الباب معقود لبيان سبب ثان من أسباب الفتن ، وهو داخل في عموم السبب الأول ولكنه خص بالذكر لعظمته ؛ وهو الخروج على أئمة الجَوْر والظلم والطغيان ، فالخرةج على هؤلاء سبب عظيم من أسباب الفتن .

لذلك بوب الإمام البخاري رحمه الله باب » سترون بعدي أموراً تنكرونها « فوقوع المنكرات منهم أمر حاصل ولابد ، وقال في حديث عبد الله : اصبروا حتى تلقوني على الحوض ، فذكر طريقة العلاج .

وعدم طاعة النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك معصية وهي سبب وقوع الفتن أيضا ، وأول فتنة وقعت في الإسلام كانت في الخروج على الحاكم وهي فتنة قتل عثمان رضي الله عنه ، فوقع السبف في أمتي محمد صلى الله عليه وسلم فلا يرفع إلى قيام الساعة .

وبقي الخروج على الحكام مستمرا ، وضرب كثير من المسلمين بهذه الأحاديث عرض الحائط ولم يأخذوا بها ، وخرجوا على الحكام فوقعت الفتن وسفكت الدماء وانتهكت الأعراض وسلبت الأموال والله المستعان .

وذكر المؤلف في تبويبه قطعتين من حديث سيأتي شرحه ضمن أحاديث الباب .

قال المؤلف :

حدثنا مسدد ، حدثنا يحيى بن سعيد القطان، حدثنا الأعمش، حدثنا زيد بن وهب، سمعت عبد الله، قال: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: »إنكم سترون بعدي أثرة وأمورا تنكرونها« قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: »أدوا إليهم حقهم، وسلوا الله حقكم« .

(إنكم سترون بعدي أَثرَةً) الأثرة ؛ الاستئثار ، والمعنى أنكم ستجدون من بعدي أمراء يقدِّمون أنفسهم في الأموال والحقوق ، ولا يعطونكم حقوقكم من ذلك .

قال (وأموراً تنكرونها) أي أنكم ستجدون منهم منكرات ؛ فيدخل في ذلك المعاصي والبدع وأنواع المخالفات الشرعية .

فلا يذهبن أحد إلى أحاديث عامة كقوله صلى الله عليه وسلم : " من رأى منكم منكرا فليغيره ..." ويقول أريد أن أخرج على الحاكم لأغير المنكر ، ويترك الأحاديث الخاصة التي وردت في ذلك ، كما يحصل اليوم من الفرق والجماعات الموجدة ، هذا من اتباع الهوى ؛ فِالأخذ بالأحاديث الخاصةِ مقدم على الأحاديث العامة في لغة العرب وعند جميع أهل العلم .

(قالوا : فما تأمرنا يا رسول الله) سأله الصحابة عن كيفية التعامل مع هؤلاء الأمراء .

فقال (أدّوا إليهم حقّهم ، وسلوا الله حقكم) هذه طريقة العلاج ، أدّوا إليهم حقهم الذي جعله الله حقاً لهم ، وهو السمع والطاعة في غير معصية الله .

وفي هذا ردٌّ على الخوارج الذين يقولون بأن الحاكم الظالم الذي لا يحكم بشرع الله لا سمع ولا طاعة له مطلقاً ؛ مخالفين بذلك صريح قول النبي ∐ ؛ فإن هذا الحاكم الذي استأثر بالخير لنفسه ومن معه لم يحكم بما شرع الله فيه .

(وُسُلُوا الله حَقَّكُم) نصْيبكم وما هو لكم ً؛ فلن يُضْبع عُلَيكم ، فسُلُوا الله ذلكُ تحصُلُون عليه إما في الدنيا أو في الآخرة . فطريقة العلاج الصبر والدعاء .

ففيه عدم جواز الخروج عليهم بالسيف ؛ إذ لم يرشد النبي □ إلى ذلك مع سؤالهم ، وتأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز . وفيه ردّ على الذين يجيزون الخروج لإنكار المنكر ؛ فهؤلاء وقع منهم المنكر ، ومع ذلك لم يأمر النبي □بالخروج عليهم لتغيير المنكر .

وقال في الرواية الثانية (من كره من أميره شيء فليصبر) وشيئا نكرة في سياق الشرط تعم كل شيء ، ولقائل أن يقول : تعم ً حتى الكفر البواح ؟

فنقول :هذا غير داخل أصلاً لأن الحديث في الأمير المسلم ؛ لقوله » من أميره « ، وأميره لا يكون إلا مسلماً ، والكافر لا يكون أميراً على المسلم بالإجماع .

الإُجْماع يَخْصُّ الأمير الْمسلَّم من عموم قوله » من أميره « ، وبقوله تعالى : { ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً } [النساء : 141] .

وأما قوله (فليصبر) فأمرٌ ، والأمر يدلُّ على الوجوب ، والخروج على الحاكم ينافي الصِبر .

ففي الحديث تحريم الخروج على الحاكم المسلم ؛ لأن الخروج عليه يؤدي إلى مفاسد أعظم من المفاسد التي وقع فيها بكثير ، وقد نقل غير واحد الإجماع على وجوب طاعة السلطان المتغلب والجهاد معه ، وأن طاعته خير من الخروج عليه ؛ لما في ذلك من حقن الدماء وتسكين الدهماء .

وقال فيه » : فإنه من خرج من السلطان شبراً مات ميتتة جاهلية « .

ومعني » فإنه من خرج من السلطان « ؛ أي خرج من طاعة السلطان .

» شبراً « ؛ أي ولو قدراً قليلاً ، والمراد عصيانه ومحاربته .

» ماتً ميتتة جَاهَليَة « ُ؛ أي حالةً موتَه كموت أهلَ الجَاهلية ، فإنهم لم يكونوا يعرفون أميرًا ولا طاعة له عندهم ؛ فيموت ضالًا كضلالهم .

وأما الرواية الثالثة ؛ ففيها بيعة عبادة بن الصامت ومن معه النبي 🛘 ، وفيها أنهم بايعوه (على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا) .

ومعنى (منشطنا) ؛ أي في حال نشاطنا .

ويحصل النشاط للسمع والطاعة عندما نحب العمل ونرغب فيه أي الذي أمرنا به .

و (مكرهنا) ؛ أي وفي حال كراهتنا للسمع والطاعة له ، فنسمع ونطيع .

(عسرنا ويسرنا) ؛ أي وفي حال الشدة والمشقة علينا ، وفي حال اليسر والسهولة .

قال (وأثرة علينا) ؛ أي في حال رأينا أمراءنا يخصون أنفسهم بالخيرات ويمنعوننا حقوقنا منها .

ففي جميع هذه الحالات نسمع ونطيع .

وهذا مخصوص بقوله □ » : لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق « ، وقوله » : إنما الطاعة في المعروف « .

وَهذا الحديثُ لَه قصَة ، وهي : أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم بعثُ جيشاً، وأمر عليهم رجّلاً، فأُوقَد ناراً، وقال: ادخلوها، فأراد ناس أن يدخلوها، وقال الآخرون: إنا قد فررنا منها، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال للذين أرادوا أن يدخلوها: »لو دخلتموها لم تزالوا فيها إلى يوم القيامة«، وقال للآخرين قولا حسنا، وقال: »لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف« ، أي فيما هو جائز شرعا لا فيما حرم الله .

قال (وأن لا ننازع الأمر أهله) ؛ أي لا نحارب الملوك والأمراء لنحصل على الملك والإمارة منهم .

وغالب الذين يخرجون على الحكام يطلبون الدنيا ؛ إما الإمارة أو المال ، ومنهم الخوارج .

لذلك سئل الحسن البصري فيما يذكر عنه :

ما تقول في الخوارج ؟ قال : هم أصحاب دنيا - هؤلاء الخوارج الذين وصفه الله بما وصفهم به من صلاة وعبادة - قال : ومن أين قلت ذلك وأحدهم يخرج في الرمح حتى ينكسر فيه ويخرج من أهله وولده ؟ أي يضحي بنفسه ولا يبالي ويندفع للقتال ، قال الحسن : حدثني عن السلطان ؛ أيمنعك من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والحج والعمرة ؟ قال : لا ، قال : فأراه إنما منعك الدنيا فقاتلته عليها .

لذلك أول من خرج منهم خرج للدنيا ، اعترض على النبي صلى الله عليه وسلم في قسمة المال ، أعطى النبي صلى الله عليه وسلم بعض المؤلفة أكثر من غيرهم ، وهذا الرجل إما انه أخذ أقل من غيره أو لم يأخذ فلم يعجبه فاعترض على النبي صلى الله عليه وسلم .

وهذا ما رأيناه اليوم هاهم يتنازعون على السلطة في سوريا .

قال في الحديث : (إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان) .

فلا يجوز الخروج على الحاكم إلا عند رؤية كفر بواح ، أي أن نرى كفراً واضحاً ظاهراً بيّناً لا خفاء فيه ولا إشكال ، مذاع معلن . ثم بعد أن نرى هذا الكفر ؛ لا يجوز الخروج إلا عند وجود القدرة ؛ لقوله تعالى : { فاتقوا الله ما استطعتم } ، قوله : { لا يكلف الله نفسا إلا وسعها } وعند تقدير المصلحة والمفسدة ، كما تدل على ذلك قواعد الشريعة ، ومن ذلك القاعدة العظيمة التي تقول إن الشريعة جاءت لتحقيق المصالح وتكميلها ، ودرء المفاسد وتقليلها

فالُخْرُوجُ مع عُدم وجود القدرة يُؤدي إلى مُفاسدٌ عظيَمةً لا تحقق الإِصلاحُ المطلوب ، بل تؤدي إلى مفاسد عظيمة . والأحاديث التي ذكرها الإمام البخاري تدل على أن المفسدة المتوقعة إذا كانت أعظم من المصلحة حرم الخروج ؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يمنع من الخروج على الحاكم الظالم الفاسق مع إفساده في الأرض إلا لأن المفسدة تغلب المصلحة عند الخروج عليهم فوجب تسكين الدهماء ، وحقن الدماء .

ومن هنا أخذ شيخ الإسلام القاعدة التي تقول إن أي قتال مفسدته أعظم من مصلحته فهو قتال فتنة .

فُلابَد من تقدير المصلحة والمفسدة ومُعرفة القدرة وإعطاءها قدرها ، وأُنتم رأيتم ما حصُلَ في سوريا ، وقبل ذلك ما كان عليه الحال في ليبيا ، لولا الله أولا ثم الثروات التي في ليبيا وأطماع الغرب فيها لما حصل ما حصل ولما وصلت إلى هي عليه الآن ، مع أنها قدمت من التنازلات ما الله به عليم ، حتى تمكنوا من إسقاط الطاغية الذي كان فيها .

وكُذلكُ الحال اليوم في سوريا لا يختلف اثنان ممن يعرف من هم النصيرية ومن هم البعثية في كفر حاكمها ، لكن بداية الأمر قلنا لا يجوز الخروج ؛ لأن المفسدة التي ستقع أعظم وأكبر مما هو حاصل ، فلا توجد قدرة ، ولكن لم يسمع كثير من الدهماء ما قلنا ، وخرجوا وحصل ما حصل ، الآن من الذي سيخلصها مما هي فيه ، لا يخلصها إلا الله تبارك وتعالى من الوحل الذي علقت فيه ، هذه نتائج عدم السماع لكلام العلماء الربانيين ، ونتائج عدم الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وإلا فلو تفقهنا في دين الله ، وتعلمنا أسباب الفتن ، وكيف النجاة منها ، والاحتراز من الوقوع في أسبابها ؛ لما وقع ما وقع ولا حصل ما حصل . والله المستعان .